

الدوحة

ملتقى الإبداع العربي
و الثقافة الإنسانية

العدد 69 يوليو 2013

سيروان باران.. طفل عابث يشوّه الدُمى



أنيس الرفاعي

الوالج إلى أحدث معارض الفنان العراقي الكردي سيروان باران، الذي احتضنه مؤخراً رواق «ماتيس» بمراكش، سوف يغدو كالزائر المسحور الذي ألقى نفسه فجأة في قلب متحف مرعب، يعجّ بالأقنعة الغريبة والدُمى الشائهة. إذ إنّ الرؤية الكابوسية للكينونة والنزعة التشويهية للكائن يتجاوزان في لوحات ومنحوتات سيروان باران على مستوى المادة والشكل والأبعاد، لتصوغا «أرخبيلاً للبشاعة»، على حدّ تعبير ميشيل ريبون، مما من شأنه «مساءلة مفهوم الجميل، وتسجيل انكسار الزمن على جلد الواقع الإنساني».

فالأعمال المشكّلة لهذا المعرض مشحونة بطاقة «غروتيسكية» طفولية «شيطانية»، تعبثُ بالأطراف الأدمية، وتلهو بصدفة المُفارق، وتفتن بتغيير جوهر الكتل، وذلك وفق ثلاث تقنيات أساسية:

أولاً، تحويل الصورة الأصل إلى صورة بلا أصل عن طريق «البتري»، وتحويل المشخص إلى مجرد عن طريق «التهويم». ثانياً، الإخلاف الشاذ للأعضاء والصفات، اعتماداً على خطوط حادة ولطخات عنيفة وتلوينات متداخلة، تنحو «بالرسم صوب تجربة الكارثة» كما يقول الفيلسوف جيل دولوز. وثالثاً، المزج الكنائسي بين الواقعي والخيالي، والقلب العجائبي الذي يُصيّر الضئيل معملاً أو المقزّم في حالة «المسخ البشري».

بالطبع، لا تخلو هذه الأعمال من تأثيرات معاصرة لا غبار عليها لكل من فرنسيس بيكون ولوسيان فرويد وفرانسييسكو غويا وإدوارد مونش، غير أنها تحمل بصمتها المرجعية الخاصة، المستمدة من الأساطير التليدة والتقاليد الكلاسيكية للفن العراقي (السومري والبابلي والأشوري)، وكذا لا تعدم قدرتها الابتكارية الجذابة، سواء في لغتها التعبيرية المتفردة والمعبرة عن الضفة المظلمة أو الوجه المخفي للكائن البشري، أو في تركيباتها اللونية الخاصة، التي تمنح للأخضر والأصفر والأحمر والأسود وهجاً وسطوعاً بالغين، يدفعنا لأن نتساءل حيارى: ترى، هل يجب الدنو أكثر من اللازم أم الهروب إلى أقصى حدّ ممكن منهما؟ هل هما ضوء ولادة جديدة أم نور غاضب لرؤية جحيمية؟

حسب الباحث الجمالي فريد الزاهي الذي وضع مقدمة دليل معرض سيوران باران، ثمة رغبة لاواعية في «اللعب والتلاعب»: اللعب بالقبح لاستدرار الجمال من باطنه، والتلاعب بالمنظور ليصبح الرائي ضحية لموضوع الرؤية، يقول: «يبدو الفنان أشبه بشامان (ساحر) يمارس على الأشكال سحره، بحيث إنه من وراء قبحها المركب يعرف كيف يمنحها جمالها الباطن. كما لو أنّ تلك الوجوه والأجساد لا توجد إلّا لكي تضعنا إزاء استحالة نظرنا. إننا نصاب بالعمى أمامها». وهما معاً، أي اللعب والتلاعب، من وجهة نظر الناقد شفيق الزكاري «فتنة خيال طفولي تم استثمارها في مرحلة الوعي اللاحق، فأنتجت عملاً فنياً أصيلاً جمع بين كل الأساليب في أسلوب شخصي واحد».

تعكس أعمال سيوران باران حساً عميقاً بالحرية وتوقاً لا متناهيّاً إلى «الكرنفالية»، وفيهما معاً «يعادل بين الخير والشر، التافه والمهم، العالي والسفلي، المقدس والمدنس، النبيل والحقير، والبشري واللابشري» إذا ما وددنا استعارة هذه العبارة من باختين وهو يصف عبقرية «البراءة المتوحشة» في مؤلفات رابليه.

جميع الحقوق محفوظة لمجلة الدوحة